

سام هاسيلبي\*

## كانت تجارة الشاي الصيني صناعة عالمية مزدهرة بعيدًا عن المصانع والتكنولوجيا.

كان التجار الهولنديون أول من استوردوا أوراق الشاي إلى أوروبا في عام 1609، ولكن بحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وبدعم من احتكار الدولة، هي التي سيطرت على ما يُعرف باسم "تجارة كانتون".

خلال العصر الذهبي للقرن الثامن عشر، كان الشاي يرمز إلى المكانة البارزة للحضارة الصينية في العالم. لقد صنعتها الأرستقراطية والبرجوازية الأوروبية كسلعة آسيوية مميزة، أحدثت صيحات أوسع للفن الغريب، الخزف والحريز من الشرق المعروف باسم "صيني". يرمز الشاي إلى العظمة المادية للإمبراطورية السماوية الموقرة، والتي أعجبت بها القوى الأوروبية الشابسة وسعت إلى محاكاتها.

على مدار القرن الثامن عشر، تضاعف متوسط استهلاك الأسرة الإنجليزية خمسة أضعاف استهلاكها من الشاي المزوج بالسكر والحليب، وارتفعت الأرباح بشكل كبير. كان الطلب على الشاي قويًا للغاية لدرجة أنه دعم إنشاء سوق عالمي متمركز حول بريطانيا، وكانت ضرائبها تمثل عُشر عائدات التاج، وضمن التوسع البريطاني في جنوب آسيا. كما أعلن المدقق العام لشركة الهند الشرقية في عام 1830: "الهند تعتمد كليًا على أرباح تجارة الصين".

لم يكن بإمكان البريطانيين تقديم الكثير في المقابل الذي أراد التجار الصينيون شرائه. لذلك، بحلول أواخر القرن الثامن عشر، بدأ المسؤولون الاستعماريون البريطانيون في تهريب الأفيون الهندي إلى مدينة كانتون الساحلية (المعروفة الآن باسم قوانغتشو). عندما حاول إمبراطور دوغوانغ، الذي حكم من 1820 إلى 1850، فرض حظر طويل الأمد على المخدرات، أعلن المسؤولون والتجار البريطانيون الحرب تحت راية الدفاع عن حرية التجارة. افتتح الانتصار البريطاني غير المتوازن في حرب الأفيون الأولى (1839-1842) ما يعرف اليوم في الصين باسم "قرن الذل". بيساطة، ساعد الشاي في إطلاق الإمبراطورية البريطانية بينما أدى أيضًا إلى الانهيار

## الشاي والرأسمالية

بالنسبة لعلماء الإمبراطورية الأوروبية وآسيا الحديثة على حد سواء، عادة في هذه المرحلة من القصة - مع صعود الغرب الآن بقوة - تتراجع تجارة الشاي الصينية عن الأنظار.

ولكن، في الواقع، فإن تجارة الشاي بعد حرب الأفيون لديها بعض الأشياء المهمة لتخبرنا عن تاريخ الرأسمالية. بالنظر إلى ما وراء عالم شمال الأطلسي، في مناطق الشاي في الصين في القرن التاسع عشر على وجه

التطوير للصين وسلالة تشينغ. فقط مع صعود الحزب الشيوعي وانتصاره في عام 1949، كما تقول المعتقدات القومية، يمكن تعويض العار الأصلي للهزيمة العسكرية والاستعمار.

كانت الصين تزرع نبات الشاي منذ أكثر من 1000 عام - وهو منتج عجيب للطبيعة أبقنه السادة الحرفيون بشق الأنفس. ومع ذلك، دخلت إنجلترا في المنافسة بسفن حديثة ومدفعية قوية ودعم أول ثورة صناعية في العالم.



عشر هذا الرأي، حيث استمر التجار والفلاحون في استخدام الأدوات والتقنيات التقليدية. كان الرهبان البوذيون خلال عهد أسرة تانغ (618-907) أول من يبيع الشاي بانتظام. كانت الأساليب المبكرة كثيفة العمالة، مثل تعبئة الأوراق في كمكة أو طحنها إلى مسحوق ناعم (الطرق التي نجت اليوم، على سبيل المثال، في شاي يونان بوير أو شاي الماتشا الياباني). تم توثيق الصنف المؤلف ذو الأوراق السائبة المحمصة لأول مرة في عام 1539، قبل عقود فقط من رحلته الأولى غرباً. جاءت أصناف الشاي الأخضر من هويتشو في مقاطعة أنهوي الجنوبية الشرقية، حيث أرخت السجلات اختراعها إلى عصر لونغتشينغ (1567-1572)، وانتقلت الطريقة جنوباً إلى جبال ووي في شمال غرب فوجيان.

وفقاً لمساحين القرن العشرين، كانت المرحلة الأولى من إنتاج الأوراق السائبة تتكون من أسر الفلاحين، وخاصة النساء، حيث تقوم بزراعة الأوراق وقطفها ثم تحميصها برفق لمنع الأكسدة الزائدة. قامت العائلات بتسخين الأوراق في نفس مقالي المطبخ التي استخدموها لطهي وجباتهم. ثم حملوا الأوراق في أكياس كبيرة إلى السوق المحلي، حيث أدرك التجار المتفاوضون، كرافعة مالية، أنهم يستطيعون ببساطة انتظار الفلاحين، لأن الأوراق كانت تتعفن ببطء داخل الأكياس. أنهى التجار

تمثل تجارة الشاي الصيني في الواقع نقطة دخول الصين إلى الرأسمالية العالمية. تم تداول الشاي، بشكل مباشر وغير مباشر، بأفيون باتنا والفضة البيروفية والسكر الكاريبي والمنسوجات الإنجليزية والأرز البورمي. شكّل هذا النشاط أول تقسيم عالمي حقيقي للعمل، مدعوماً بالتخصص الإقليمي للمحاصيل النقدية للعالم الاستعماري - أو كما قال WEB Du Bois في كتابه إعادة البناء الأسود (1935): "بحر مظلم وواسع من العمل البشري في الصين والهند وبحر الجنوب وأفريقيا كلها؛ في جزر الهند الغربية وأمريكا الوسطى والولايات المتحدة... إنتاج المواد الخام والرفاهية في العالم - القطن والصوف والقهوة والشاي... "هذا التقسيم العالمي للعمل أعاد تشكيل الريف الصيني بطرق ديناميكية وجديدة.

نظر الخبراء الغربيون إلى الصين على أنها مجتمع ما قبل الرأسمالية. كانوا عادةً ما يعادلون "الرأسمالية" بالتصنيع والابتكار، والمعايير المذهلة مثل المحركات التي تعمل بالفحم، ومصانع الصلب، والتقدم في الهندسة الكيميائية والميكانيكية. ميزت هذه الاختراقات التكنولوجية "الغرب" عن "البقية"، وكان غيابهم في الصين - وفي كثير من آسيا - هو ما جعلها "ما قبل الرأسمالية".

من بعيد، تؤكد تجارة الشاي الصينية في القرن التاسع

الخصوص، استمرت الرأسمالية الحديثة في التطور المرن وذات طابع عالمي. حتى في المناطق النائية الصينية، نجد أن تراكم رأس المال لا يعتمد على الابتكار التكنولوجي المذهل ولا على العلاقات الطبقة الخاصة، ولكنه يتجلى بدلاً من ذلك في منطق اجتماعي جديد للمنافسة العالمية. بعد كل شيء، فإن نظام ميناء المعاهدة الصينية الذي تم تنفيذه بعد حرب الأفيون الأولى لم يدل على زوال صناعة الشاي ولكن توسعها.

خلال الفترة المتبقية من القرن التاسع عشر، ارتفعت صادرات الشاي بشكل أسرع، حيث انضم المشترون من أوروبا القارية والولايات المتحدة إلى البريطانيين. بحلول أوائل القرن العشرين (وقت إجراء الدراسات الاستقصائية المنهجية الأولى)، استمرت تجارة الشاي في توظيف عدد أكبر من الناس - عائلات الفلاحين والنساء والأطفال والعمال الموسمين والحمالين عبر القرى الريفية وموانئ المعاهدات - أكثر من أي من الصناعات الحضرية المبكرة في الصين. ورداً على ذلك، ظهرت صناعات منافسة في الهند الاستعمارية وسيلان واليابان وتايوان وجزر الهند الشرقية الهولندية. فقط عندما تحول معظم التواريخ انتباهها إلى مكان آخر، كانت تجارة الشاي الصينية تنمو بشكل أكبر من أي وقت مضى، مع وجود تشابكات أعمق في الخارج.



تعني "عصا البخور). لماذا كان من الضروري تتبع الوقت في عملية صنع الشاي؟ في هذا، تشترك الصناعة الصينية في الكثير من القواسم المشتركة مع مزارع السكر الصناعية الضخمة والناشئة في منطقة البحر الكاريبي، والتي نضجت في نفس الفترة تقريباً. وفقاً لعالم الأنتروبولوجيا الأمريكية سيدني مينتز، فقد كتب في كتابه (حلاوة القوة) (1985)، هناك عاملان يفسران المعنى الصناعي للانضباط الزمني الذي ميز هذه العقارات الكبيرة. أولاً، كان هناك ضغط طبيعي لمعالجة قصب السكر قبل أن يفسد، غالباً في غضون يوم واحد؛ وثانياً، شعر المزارعون بالضغط الاجتماعي لمنافسة السوق لتقليل تكاليف الإنتاج. يمكن ملاحظة ديناميكيات مماثلة على الجانب الآخر من العالم، في وديان وسط الصين.

نظراً لأن أوراق الشاي منتج طبيعي وقابل للتلف من التربة، فإن جودتها تعتمد على التخميص والغرلة والدرجة في الوقت المناسب. في وقت محادثات بول، كان التجار يراقبون هذه المهام بدافع الحرص على الحفاظ على الصفات الجسدية الطبيعية للمنتج النهائي. كانت الوحدات الزمنية بمثابة إرشادات، ولكن يمكن للعمال الفرديين تعديل المدة حسب الحاجة. كتب بول: "على الرغم من أن التخميص يتم تنظيمه وفقاً لمقياس الوقت المحدد لـ "تشي هيانغ"، ومع ذلك يتم استخدام هذه الأداة كدليل أكثر من كونها قاعدة". تم تزويد العمال بالعينات ومنحهم حرية التخميص لفترات أطول أو أقصر، حتى

نطاق جديد. يمكننا أن نأخذ، كتوضيح واضح، الأساليب الغربية لضبط الوقت التي كانت مستخدمة بالفعل في مناطق الشاي الصينية، والتي على الرغم من كونها بعيدة كل البعد عن التطور، إلا أنها تطورت بلا شك على مدار القرن التاسع عشر.

شغل أمويل بول منصب مفتش شركة الهند الشرقية في ميناء كانتون الجنوبي في عام 1810. على الرغم من أنه لم يشهد أبداً إنتاج الشاي بشكل مباشر، إلا أنه تعلم من المخبرين أن المديرين في ريف أنهوي سينظمون إنتاج الشاي باستخدام جهاز ضبط الوقت غريب الأطوار على ما يبدو: أعواد البخور التي تحترق ببطء بمعدل منتظم. جاءت العصي بأبعاد مختلفة ولكنها صممت بشكل عام لتدوم 40 دقيقة. تعود ممارسة الحفاظ على الوقت من خلال تتبع حرق البخور أو نهايات الحبال إلى القرن الخامس في الصين واليابان. إنه نفس المبدأ المستخدم في الساعات الرملية والساعات المائية الموجودة في أماكن أخرى عبر العالم القديم. تشير الدلائل المتقطعة إلى أن البخور كان يستخدم لتنظيم الوقت في مناجم الفحم وري المزارع في الصين الحديثة أيضاً.

في كتابه "حساب زراعة الشاي وتصنيعه في الصين" (1848)، كتب بول أن تجار الشاي الصينيين استخدموا أعواد البخور المحترقة لتتبع وقت المراحل المختلفة لتخميص الشاي. كتب: "وقت التخميص تم تنظيمه عن طريق أداة تسمى "تشي هيانغ" (أو جي شيانغ، والتي

عملية التحسين في ورشهم المؤقتة، عادةً ما تكون الغرف الاحتياطية داخل منازلهم أو المباني الصغيرة المستأجرة. لقد استأجروا مجموعة من العمال الموسمين المحليين والمهاجرين من المقاطعات المجاورة لأداء مهام الغرلة والدرفلة والتخميص والتعبئة.

على الرغم من أن تطوير الأدوات والتكنولوجيا كان سمة مميزة للصناعة الحديثة، فلا ينبغي لنا أن نركز عليها على حساب تحليل النشاط البشري والحياة الاجتماعية. دافيد لاندز، مؤرخ مرموق للثورة الصناعية الأوروبية، كان في طليعة الابتكار التكنولوجي وادعى أن الدافع لزيادة الإنتاجية "لم يكن معروفاً" في الصين الإمبراطورية. بدلاً من ذلك، كانت "الفضيلة العظيمة هي الانشغال - الاجتهاد المستمر في مهام المرء". كدليل على ذلك، في كتابه كتاب الثورة في الوقت (1983)، أشار إلى عدم وجود في الصين، بالنسبة إلى أوروبا، من الساعات الميكانيكية وأجهزة ضبط الوقت التي يمكن أن بدقة قياس وتنظيم الإنتاجية.

ومع ذلك، يُظهر لنا التاريخ الصيني أننا لسنا بحاجة إلى تحديد تقنيات متطورة محددة لاكتشاف مدى انتشار ما أطلق عليه ماكس ويبر "الروح الرأسمالية" - أو الاعتقاد، كما قال ويبر (نقلًا عن بنجامين فرانكلين)، أن "الوقت قيم". كان هذا هو الحال بالفعل في الصين ما بعد حرب الأفيون، وهو مجتمع زراعي تجاري تم دفعه بسرعة نحو الإنتاج والتنافس مع السوق العالمية الصناعية على

تكتسب الأوراق اللون والمظهر المناسبين، كما هو الحال في وصفة الطبخ.

بدأ استخدام حراس الوقت بالبخور لتأديب ممارسات العمل في المناطق الجنوبية من Anhui. جيانغ ياوهوا، تاجر من مقاطعة شي هويتشو، كان يدير مصفاة شاي مزدهرة في مدينة تونكسي التجارية، حيث كان يشحن آلاف الجنيهاً من الأوراق إلى شنغهاي كل ربيع.

لماذا التجار يدفعون عمالهم بقوة؟ باختصار، المنافسة. ارتفعت صادرات الشاي صعوداً حتى نهاية القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها عند 295 مليون جنيه إسترليني في عام 1886. ومع ذلك، بدأت الأسعار في الانخفاض في وقت مبكر من أواخر ستينيات القرن التاسع عشر، مما يعكس زيادة العرض من قبل منتجي الشاي الصينيين. خلال تلك العقود الأولى بعد افتتاح موانئ المعاهدة، نقل والد جيانغ ياوهوا، جيانغ وينزون، تجارة الشاي من كانتون إلى شنغهاي، حيث عمل. كتب إلى خليفته: "إن شركة العائلة في أزمة؛ إنه يتلاشى إلى لا شيء. بحلول أواخر القرن، دمرت المنافسة الجديدة من مزارع الشاي في شرق الهند وسيلان التجارة الصينية.

وفقاً للاقتصاد الكلاسيكي الجديد والماركسي، كان من الممكن أن تتطوّر الرأسمالية الحديثة فقط مع الاغتراب الكامل وتسليع الأرض والعمالة والمواد الخام، أي خصخصة الملكية العامة وتفكك الترتيبات الاجتماعية القديمة مثل زراعة الفلاحين والعبودية. عندها فقط سيجد الفلاحون والأشخاص المحرّرون أنفسهم خاضعين تماماً لضغوط السوق أو بشكل أكثر تقييداً، عندها فقط يمكن للشركات تخصيص الموارد بكفاءة أكبر.

لكن في تجارة الشاي الصينية، كان الفلاحون يزرعون شجيرات الشاي على أراضيهم، وكانت الورش تعمل داخل المنازل الخاصة. كان العمال إما أفراد أسرة غير مدفوعي الأجر أو عمال مهاجرين يعملون على أساس موسمي. تتعارض حقائق إنتاج الشاي في الصين مع الإجماع - المستمد من التجربة التاريخية الأوروبية الأمريكية - لكل من الاقتصاد الكلاسيكي الجديد والماركسي. مثل هذه المنحة حرّضت الأفراد البروليتاريين والرابحين إلى أقصى حد ضد الشخصيات التقليدية (والاستعمارية) للقنان والعبد والفلاح. ومع ذلك، في مناطق الشاي الصينية الريفية، استجاب التجار والمديرون لانخفاض الأسعار الدولية من خلال قياس وتنظيم وقت العمل لموظفيهم من خلال نهج من حيث الروح والجوهر، صناعياً.

تخبرنا هذه المشاهد من تجارة الشاي أن الحياة اليومية للفلاح الصيني في القرن التاسع عشر كانت مفعمة بالحياة بالفعل من خلال منطق السوق، أكثر بكثير مما يعرفه حتى المعاصرون. مال الكتاب الصينيون المتأخرون من الإمبراطورية إلى وصف الريف بأنه مجموعة من

مزارع أصحاب المزارع الصغيرة المستقلة. لكن الواقع الاقتصادي كان أكثر تعقيداً. اعتمدت ورشة الشاي الريفية في جيانغ ياوهوا على قروض مسبقة من الممولين المقيمين في شنغهاي وموانئ المعاهدة الأخرى. بالنسبة للأسر التي تزرع الشاي، شكّل الشاي 60 في المائة من دخلها في المتوسط، وحتى هذا كان بالكاد يكفي لإبقائها مطمّنة وآمنة. من أجل البقاء على قيد الحياة في أشهر الشتاء، غالباً ما كانت الأسر في هويتشو تقترض في شكل حبوب، وفي المقابل تقدموا بمطالبات على محاصيل الشاي الخاصة بهم في فصل الربيع. من مسافة، يبدو أن الشاي الذي يبيعهونه هو نتاج تراهم، ومن ثم ممتلكاتهم. في الواقع، قبل أن يتم قطعها، تم بيع الأوراق بالفعل إلى الباعة المتجولين. وهكذا، على الرغم من تحذيرات مسؤولي تشينغ مثل بيان باودي (1824-1893)، الحاكم العام لفوجيان، للتخلي عن المحاصيل النقدية والعودة إلى حياة الزراعة ذات الاكتفاء الذاتي، لم تستطع هذه العائلات ببساطة النمو لتلبية احتياجاتهم الخاصة للبقاء على قيد الحياة، كانوا بحاجة إلى الإنتاج للسوق، وبالتالي، في المنافسة مع العديد من الآخرين في جميع أنحاء آسيا. لم تستطع هذه العائلات أن تنمو ببساطة لتلبية احتياجاتها الخاصة للبقاء على قيد الحياة، كانوا بحاجة إلى الإنتاج للسوق، وبالتالي، في المنافسة مع العديد من الآخرين في جميع أنحاء آسيا.

أما بالنسبة لصناعة الشاي الاستعمارية في آسام في الهند، المنافس الرئيسي للصين، فقد اعتمد المزارعون البريطانيون على نظام العمل التعريفي الذي وضعه المسؤولون على أنه امتداد لقوانين "السيد والخادم" التي تعود إلى قرون. لم تكن هذه ترتيبات مجانية. ومع ذلك، ضغط المشرفون على "الحقوقي" المعطلين قانوناً، الذين تم تجنيدهم من جميع أنحاء شرق الهند ومعظمهم من النساء، لتطهير الأرض والتطف وشواء الأوراق. لاحظ المزارع الإنجليزي ديفيد كروول، في كتابه: (الشاي Tea 1897)، أن: ينجزون عملاً أكثر بكثير مما فعلوه قبل 20 أو 30 عاماً. زادت المهمة اليومية لمثل هذا العمل مثل العزق، على سبيل المثال، من 25 إلى 30 في المائة أكثر مما كان يُطلب في السابق.

فاز المزارعون والمشرفون بهذه المكاسب الإنتاجية جزئياً من خلال التكتيكات التنظيمية الذكية، وجزئياً من خلال الضرب والجلد والمراقبة للقوى العاملة غير الحرة. نتيجة لهذه الجهود والتحولات غير العادية في جميع أنحاء آسيا، أصبح الشاي، بعد الماء، أكثر المشروبات استهلاكاً على نطاق واسع في العالم - وهو وضع لم يتنازل عنه أبداً.

في الصين، كما هو الحال في الهند وفي كثير من أنحاء العالم، ترسخت الرأسمالية كثيراً من خلال إعادة توظيف التقنيات والتقنيات "التقليدية". داخل تجارة الشاي الصينية، على سبيل المثال، لم يكن هناك شيء

غير عادي في ضبط الوقت بالبخور. ومع ذلك، كان ابتكار طرق مميزة لإدماجها في نظام تراكم حديث أمراً جديداً. لقد أوضحت العقود الأخيرة من العولة مدى تفاوت التوسع الرأسمالي على الدوام، والاعتماد على الطريق الأقل مقاومة واستملاك أي تقنيات و مواد وأشخاص موجودون في متناول اليد.

اليوم، لا يشمل التقسيم العالمي للعمل الشركات المتكاملة رأس المال فحسب، بل يشمل أيضاً، خاصة في عالم ما بعد الاستعمار، الشبكات الأفقية للمصانع كثيفة العمالة - بعضها يقع في غرف المعيشة - التي تشبه رسمياً ورش الشاي الصينية في وقت سابق العصور. على وجه التحديد، بسبب كثافة اليد العاملة، أثبتت مصانع السيارات والمنسوجات والإلكترونيات أنها أرخص وأكثر مرونة وأكثر قدرة على التكيف مع ظروف السوق المتغيرة من سابقتها في منتصف القرن. مثل هذه الإستراتيجيات هي التي أدت إلى "صعود" شرق آسيا في أواخر القرن العشرين.

كانت قصة آسيا أساسية في تحول الاقتصاد السياسي العالمي منذ أواخر القرن العشرين، لكنها غالباً ما تم تهميشها في حسابات الرأسمالية النيوليبرالية التي ركزت على حفنة من المثقفين في أوروبا وأمريكا، وفي المقابل، تكافح هذه الحسابات لفهم صعود الصين، دون فهم أعمق لكيفية تشابك تاريخ الرأسمالية مع المنطقة منذ فترة طويلة. إذا كان هدفنا هو سرد قصة أكثر تكاملاً، فستكون نقطة البداية القيمة هي إدراك أن الصين، وآسيا على نطاق أوسع، لم تكن مجرد متفرج على ولادة الرأسمالية في القرن الثامن عشر في أوروبا. منذ البداية، ساعدت شعبها في تشغيل دوائر تراكم رأس المال التي تمتد عبر العالم - وخاصة من خلال تجارة الشاي - مما أدى إلى ضغوط غير شخصية تجاه التوسع والتسارع.

\* سام هاسيليبي

أستاذ مساعد للتاريخ بجامعة فيلانوف. ومؤلف كتاب: "حرب الشاي: تاريخ الرأسمالية في الصين والهند" (2020).

المصدر:  
aeon

<https://aeon.co/essays/the-china-tea-trade-was-a-paradox-of-global-capitalism>